

علم النفس في الجزائر النشأة والمسار وآفاق التطور

الأستاذ الدكتور/ بوحفص مبارك
قسم علم النفس وعلوم التربية - وهران الجزائر
الأستاذ الدكتور/ محمد مقداد
كلية العلوم الاجتماعية جامعة البحرين - مملكة البحرين

مقدمة .

حصيلة نشاط الباحثين السيكولوجيين الجزائريين في الجامعة في هذه الفترة، من وجهة نظر أستاذين عايشا هذا المسار، سواء في مرحلة الأخذ كطالبين، أم في مرحلة العطاء كأستاذين وباحثين.

2. كما نسعى إلى تقديم قراءة نقدية لمسار علم النفس في الجزائر، مع إبراز التحديات التي واجهته، وما زالت تواجهه، واستشراف آفاق تطويره في المستقبل.

3. ونسعى كذلك إلى لفت انتباه السيكولوجيين الجزائريين إلى أهمية التأريخ لهذا التخصص والحفاظ عليه في الذاكرة، وضرورة النهوض به والعمل على تطويره. وفي نفس السياق، نسعى من خلال هذه المقالة، إلى لفت انتباه السيكولوجيين الجزائريين إلى ضرورة إنجاز بحوث أخرى في جوانب أخرى من مسار علم النفس في الجزائر، كاتجاهات البحوث، سواء من حيث الموضوعات أم من حيث مناهج البحث، على مستوى الماجستير والدكتوراه.

أولاً: نشأة علم النفس في الجزائر:

يمكننا تتبع الجذور التاريخية لعلم النفس في الجزائر، من خلال نشأة التعليم العالي بالجزائر أثناء العهد الاستعماري، حيث أسست سنة 1859 أول مدرسة عليا للطب، ثم فتحت سنة 1879 كل من مدرسة الحقوق، ومدرسة العلوم، ومدرسة الآداب. وانتهى تجميع هذه المدارس الأربع بتأسيس جامعة الجزائر سنة 1909، على نمط الجامعات الفرنسية.

إن الحديث عن نشأة أي علم من العلوم مهم جدا. ذلك أن الإشارة إلى تاريخه (ماضيه) يمكن من فهم حاضره وما سيؤول إليه في المستقبل. ومن هنا، فإن الحديث عن نشأة علم النفس في الجزائر مهم لفهم هذا العلم وما مر به من تطور وأهم المحطات التي مر بها، والتحديات التي تواجهه في مسيرته، التي قد تحول دون تطوره بالصورة المنشودة. لقد بين بانجافيلد (Benjafeld, 1996) أن الحديث عن تاريخ علم النفس يتم بوحدة من طريقتين هما:

إما أن يتم بالإشارة إلى أقطابه، ومساهمة كل منهم، وكيف عمل كل منهم على تطويره.

وإما أن يتم بالإشارة إلى المحطات والأحداث البارزة التي أثرت بوضوح في مسيرته سلبيًا أو إيجابيًا. وعلى الرغم من أن بانجافيلد بين أن الطريقة الأولى أيسر في الحديث عن تاريخ علم النفس، وعن تطوره، وقد استخدمها هو نفسه في كتابه "تاريخ علم النفس"، إلا أن هذه الورقة تعتمد الطريقة الثانية، لأن علم النفس في الجزائر تأثر بالأحداث أكثر مما تأثر بالإفراد. وبالتالي، فإن عرض علم النفس في الجزائر سيتم من خلالها.

أهداف البحث:

1. نسعى من خلال هذا المقال إلى التوثيق لمسار علم النفس في الجزائر على مدى أكثر من نصف قرن من التكوين والبحث والممارسة. والوقوف على

حيث حددت هذه النصوص القانونية مدة الدراسة للحصول على شهادة الليسانس - البكالوريوس - في علم النفس أو في علوم التربية، بأربع سنوات بعد الحصول على شهادة البكالوريا - الثانوية العامة - . كما حددت المقررات الدراسية وطرق إنجازها في جوانبها النظرية والتطبيقية، موضحة ملمح الخريج في كل تخصص، ودوره في المساهمة في حل مشكلات التنمية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع، مع التركيز على خصوصيات المجتمع الجزائري، ثنائية اللغة¹، النهج الاشتراكي للتنمية ومركزية القرار، المستوى التعليمي المحدود للمجتمع الجزائري بعد الاستقلال مباشرة، التركيبة السكانية للمجتمع والاختلاف الجغرافي بين المناطق في مستويات التنمية الاقتصادية التي تركها المستعمر، حيث كانت مناطق المعمرين في السهول الشمالية الخصبة من أغنى المناطق تنمية، بينما كانت المناطق الجبلية والصحراوية بعيدة كل البعد عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية، الشيء الذي حاول المسؤولون علاجه بتسطير مخططات تنموية خاصة لبعض المناطق المحرومة في إطار ما كان يسمى بسياسة التوازن الجهوي (في تلك المرحلة التاريخية من التطور، أي فترة السبعينيات وما تلاها).

نظرا إلى الطلب المتزايد على التعليم العالي، ولظروف المرحلة التنموية التي كانت تمر بها الجزائر آنذاك، كانت إصلاحات 1971 تهدف إلى توسيع الهياكل الجامعية، بإنشاء جامعات ومراكز جامعية جديدة، وتطوير المناهج الدراسية حتى تتسجم مع الواقع الجزائري، والتركيز على الدراسة التطبيقية عوض النظرية، وإعطاء أهمية أكثر للتخصصات العلمية والتقنية بدل التخصصات

كان علم النفس يدرس كمقرر فرعي في كلية الطب، ضمن قسم الأمراض العصبية، أو كمقرر فرعي ضمن قسم الفلسفة في كلية الآداب، مندمجا ضمن مقرر أشمل يضم مجمل العلوم الاجتماعية والإنسانية. ورغم كونه مقورا جزئيا، لكنه كان يسترعي اهتمام العديد من الطلبة.

أما في عهد الاستقلال (منذ عام 1962 م)، فقد استمرت الجامعة الجزائرية بنفس المناهج والمقررات التدريسية والتنظيم الإداري، على غرار ما كان سائدا إبان الفترة الاستعمارية، مع بعض التعديلات الطفيفة مثل تحويل ملحقتي جامعة الجزائر بكل من وهران وقسنطينة إلى مراكز جامعية، وتحويل هاتين الملحقتين فيما بعد - سنة 1965 - إلى جامعتين هما جامعة وهران وجامعة قسنطينة. وإدخال مسحة وطنية على بعض مقررات التدريس مثل التاريخ والقانون والأدب العربي والعلوم الاجتماعية. وهذا إلى غاية 1970 عند إنشاء وزارة التعليم العالي والبحث العلمي وانفصالها عن وزارة التربية الوطنية، التي تبعها سنة 1971، مشروع إصلاح التعليم العالي في الجزائر المستقلة.

ثانيا: مسار علم النفس في الجزائر.

1. علم النفس في الجامعة الجزائرية:

تمت إصلاحات التعليم العالي بمقتضى مجموعة من القوانين - المراسيم -، المؤرخة في 25 غشت 1971، المتضمنة تنظيم أنواع التعليم وشهادات التعليم العالي" في الجزائر. وما يهمننا في هذا المقام مرسومان، أولهما المرسوم رقم 71-224، المؤرخ في 25 غشت - أغسطس 1971 -، المتضمن "تنظيم الدروس للحصول على شهادة الليسانس في علم النفس". وثانيهما المرسوم رقم 71-230، المؤرخ في 25 غشت 1971، المتضمن "تنظيم الدروس للحصول على شهادة الليسانس في علوم التربية".

¹ اللغة العربية واللغة الفرنسية.

المنظمين)، نتيجة الأعداد المتزايدة من الحاصلين على شهادة البكالوريا، المقبلين على التعليم العالي، ومحدودية هياكل وإمكانات استيعابهم. فجمعت العلوم الاجتماعية¹ في جذع مشترك، وعلوم الطبيعة والحياة² في جذع آخر، والعلوم والتكنولوجيا³ في جذع ثالث. وفيما يخص الجذع المشترك للعلوم الاجتماعية، يتلقى الطالب مقررات دراسية عامة في كل علم من العلوم الاجتماعية، يتم بعدها (خلال السنة الثانية) توجيهه إلى جذع مشترك آخر، سمي الجذع المشترك لعلم النفس وعلوم التربية، حيث يدرس مقررات من علم النفس «مدخل إلى علم النفس، علم النفس الاجتماعي، علم النفس النمو، القياس النفسي...» ومقررات من علوم التربية «مدخل إلى علوم التربية، المناهج التربوية، الإدارة التربوية...» ومع نهاية السنة الثانية، يوجه الطالب مرة ثالثة إلى أحد فروع علم النفس، أو إلى أحد فروع علوم التربية. ليقضي السنتين الثالثة والرابعة، في دراسة أحد تخصصات علم النفس، أو أحد تخصصات علوم التربية. وتتوج العملية بحصوله على شهادة الليسانس في علم النفس، موضحة تخصصه الفرعي: علم النفس العيادي على سبيل المثال أو علم نفس العمل والتنظيم. أو بحصوله على شهادة الليسانس في علوم التربية، موضحة تخصصه الفرعي: كالإرشاد والتوجيه أو بناء وتقييم المناهج مثلا.

لم يعمر نظام الجذوع المشتركة هذا طويلا، نتيجة سلبياته العديدة التي خلقت تدمرا عاما لدى هيئات التدريس والهيئات الإدارية المسيرة للجامعات، ولدى

الأدبية، خدمة لبرنامج التصنيع الذي بدأتها الجزائر مع المخطط الرباعي الأول، بداية من سنة 1970، إضافة إلى ذلك، استهدفت إصلاحات 1971 تغيير مناهج وتوجهات التعليم العالي، التي مضى عليها أكثر من عقدين أو ثلاثة، التي كانت لا تزال سارية المفعول عشرية كاملة بعد الاستقلال، حيث كانت هذه الأخيرة تخدم أهداف جامعة تم إنشاؤها لخدمة مصالح المعمرين الفرنسيين. كما كانت الإصلاحات تهدف إلى تحديث المناهج والمقررات التعليمية، حسب ما تقتضيه التطورات العلمية والمعرفية سارية المفعول في جامعات العالم آنذاك.

2. كرونولوجيا المقررات الدراسية في علم النفس وعلوم التربية:

في سبعينيات القرن المنصرم، اعتمد إصلاح 1971 مقررين منفصلين لكل من علم النفس (المرسوم (71-224)، وعلوم التربية) المرسوم (71-230)

في الثمانينيات جرى تعديل آخر للمقررات الدراسية (سمي إصلاحا)، جمع بين علم النفس وعلوم التربية على مستوى السنتين الأولى والثانية (كجذع مشترك) في مقرر دراسي واحد. وتم الفصل بينهما خلال التخصص (السنة الثالثة والرابعة). حيث وضع لعلم النفس مقرراته الدراسية التي غطت فروع الرئيسية، كعلم النفس العيادي وعلم نفس العمل والتنظيم.

ومع نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، أجريت تعديلات على المقررات الدراسية في الجامعة الجزائرية، مست بشكل أساسي مقررات السنة الأولى في كافة التخصصات، حيث جمعت التخصصات، خلال السنة الأولى من التعليم الجامعي في شكل جذوع مشتركة، تجمع التخصصات المتجانسة، لكي يتم التحكم أكثر في عملية توجيه الطلبة (حسب رأي

¹ علم النفس وعلوم التربية وعلم الاجتماع والفلسفة والديمقراطية علم السكان.

² البيولوجيا والطب والصيدلة وجراحة الأسنان والبيطرة.

³ فروع العلوم الدقيقة وفروع علوم الهندسة.

يشغل خريجو أقسام علم النفس المختلفة في عدد من المؤسسات الحكومية والخاصة غير أن أهمها هو المؤسسات التابعة لوزارات العمل والشؤون الاجتماعية والصحة والتربية والتعليم. معظم العاملين في وزارات الصحة والشؤون الاجتماعية من حملة الليسانس (الباكالوريوس) في علم النفس العيادي. ومعظم العاملين في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية من حملة الليسانس في علم نفس العمل والتنظيم. ومعظم العاملين في وزارة التربية والتعليم من حملة الليسانس في علم النفس التربوي.

عندما يوظف هؤلاء ولأول مرة يجدون صعوبة كبيرة في نقل ما تعلموه في الجامعة إلى محيط العمل. لهذا، فهم يعتمدون أساساً في عملهم على المحاولة والخطأ لغاية ما يصبحون قادرين على القيام بالمهام المنتظرة منهم القيام بها. وقد نرى بعضاً منهم أثناء وجوده في المحيط المهني وفي أيامه الأولى يقوم ببعض أو ربما بكثير من المهام التي لا تمت بصلة إلى تخصصه إما لجهله هو نفسه أو لجهل الإدارة التي توظفه أو لجهلها معاً.

لا يتمكن الممارسون من القيام بعملهم على أكمل وجه لسببين رئيسيين هما:

1. طبيعة التكوين الذي يتلقونه في الجامعة الذي يركز على الجوانب النظرية، ولا يعطي أهمية للجوانب التطبيقية إلا نادراً. وفي مثل هذه الحالة، كيف يتمكن الطالب من نقل ما تعلمه بين جدران مدرجات الجامعة إلى المحيط المهني الزاخر بالمشاكل؟

2. طبيعة المعرفة النفسية التي يتلقاها الطالب: سنشير لاحقاً إلى ضرورة توطين علم النفس حتى تكون المعرفة النفسية قريبة جداً من مدارك الطالب ومنسجمة مع واقعه ومحيطه كي تكون عملية نقلها وتحويلها إلى المحيط سلسلة وكاملة. فالطالب الذي

الطلبة تحديداً، الذين كانوا في العديد من المناسبات ضحايا لعمليات "التوجيه"، التي كانت في حقيقة الأمر عمليات "تسيير إداري" لمواجهة الضغط العددي للطلاب، عوض التوجيه التربوي المتعارف عليه في مثل هذه الحالات.

ومع بداية الموسم الجامعي 2001/2000، تم إلغاء نظام الجذوع المشتركة، وتم الرجوع إلى النظام السابق لها. وعليه، فقد تم تعويض الجذع المشترك للعلوم الاجتماعية بالجذع المشترك لعلم النفس وعلوم التربية، الذي لا يزال ساري المفعول إلى يومنا هذا.

وفي بداية الموسم الدراسي 2006/2005، تم اعتماد مناهج ومقررات دراسية جديدة - وهي إلى حد الساعة - تسيير جنباً إلى جنب مع المقررات الراهنة إلى غاية تعميم الجديد منها وإلغاء القديم، في إطار ما سمي اصطلاحاً بنظام "ليسانس - ماستر - دكتوراه (ل.م.د. LMD)"، تماهياً مع ما هو جارٍ في الفضاء الأوروبي (تقليداً له)، الذي سن هذا النظام في إطار مسار "بولونا Bologna" Process. حيث وحد أنظمة المناهج والشهادات

ضمن الاتحاد الأوروبي، وسعى إلى تشجيعها خارج المحيط الأوروبي. وهنا، عدنا إلى إعادة دمج مناهج علم النفس وعلوم التربية، ضمن ما يسمى بعائلة العلوم الاجتماعية، مع تقليص سنوات الدراسة للحصول على الليسانس، لتصبح ثلاث سنوات بدلاً من أربع حيث تخصص السنة الأولى منها، لدراسة مقررات المداخل للعلوم الاجتماعية، والسنة الثانية، كمدخل لعلم النفس وعلوم التربية، وفي السنة الثالثة والأخيرة من شهادة الليسانس، يوجه الطالب إلى التخصص في علم النفس أو في علوم التربية.

3. علم النفس في المهنات والعيادات النفسية ومكاتب الاستشارة (التربوية والصناعية والخدمية وغيرها):

طول الوقت. ولا بد من الإشارة إلى أن بعض فروع علم النفس كالقياس النفسي والإحصاء قد لا تحتاج إلى التوطين مقارنة بفروع علم النفس الأخرى مثل علم النفس الصناعي والتربوي والعيادي وعلم النفس الموهبة والقدرات العقلية.

بعد عملية إصلاح التعليم العالي في سبعينيات القرن المنصرم، شرعت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في إرسال البعثات بما في ذلك خريجو علم النفس لتتكون في الخارج (البلدان العربية، والبلدان الأوروبية، والبلدان الأمريكية). وفي الثمانينيات، شرع المبتعثون في العودة إلى الجزائر حاملين في الغالب شهادات عليا. وتم توظيفهم بالكامل في الجامعات الجزائرية التي كانت في حاجة ماسة إلى الكوادر الوطنية في إطار ما سمي آنذاك بالجزارة. ولفهم سيرورة علم النفس في الجامعات الجزائرية، يمكن النظر إليها على أنها عملية مرت بثلاث مراحل هي:

1- مرحلة تناول علم النفس: وهي تبدأ ببداية إرسال البعثات إلى التكوين في الخارج. وقد استغرقت هذه المرحلة نحو عشر سنوات (منتصف السبعينيات إلى منتصف الثمانينيات). وعلى الرغم من التنوع الثقافي للبلدان التي تخرج منها المبتعثون (بلدان عربية، بلدان أوروبية، بلدان أمريكية)، إلا أن علم النفس فيها يكاد يكون واحداً، فهو علم نفس وليد الثقافة الغربية حتى وإن ظهر عربياً أو أوربياً أو أمريكياً. وبغض النظر عن اللغة التي يقدم بها فنظرياته ومصادر المعرفة فيه ومناهجه ومعاييرها، تكاد تكون واحدة، وهي النظريات والمصادر والمناهج والمعايير الغربية.

2- مرحلة هضم علم النفس: وهي تبدأ بعودة المبتعثين إلى الجزائر وتسكين أكبر عدد منهم في الجامعات الجزائرية المختلفة العريقة كجامعات

يدرس مثلاً المدرسة التحليلية وخاصة نظريات سجموند فرويد كنظرية النمو النفسي الجنسي ونظرية الليبدو وتأكيده على أن الإنسان مجبر وليس مخيراً، كيف ينقلها إلى المحيط الخارجي؟ وكيف يعتمد عليها في علاج المشاكل السلوكية والانفعالية؟ والطالب الذي يدرس السلوكية خاصة نظرية جون واطسن الذي يركز فقط على السلوك القابل للملاحظة والقياس. كيف يمكن نقلها إلى الواقع والاعتماد عليها في ممارسته النفسية؟

ثالثاً: التحديات التي تواجه علم النفس في الجزائر:

قد يكون أكبر تحد يواجهه علم النفس في الجزائر هو تحدي التوطين أو الجزارة. على الرغم من أن علم النفس في الجزائر يتجاوز مائة سنة، إلا أن الملاحظ سيرى بيسر أن علم النفس المدرّس في الجامعات الجزائرية والممارس في المصحات والعيادات النفسية هو علم النفس كما نشأ في البلد الأصلي الذي تكون فيه أستاذ علم النفس المعني أو ممارسه. مع العلم أن البلدان التي تكون فيها علماء النفس الجزائريين هي البلدان العربية وعلى رأسها مصر، والبلدان الأوروبية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا، والبلدان الأمريكية وعلى رأسها أمريكا وكندا. ولم تكن هناك محاولات لتوطين علم النفس (جزارة علم النفس) وإنتاج علم نفس محلي يستفيد منه حقيقة من يتعلم ومن يمارس، لأن العلم الغربي لا يمكن صاحبه من الاستفادة الفعلية منه (خليفة، 2008).

قد يقول قائل إن علم النفس كغيره من العلوم لا وطن له، وهو علم كباقي العلوم الأخرى (الفيزياء، الكيمياء، الرياضيات...) لا يتأثر بالبيئة التي نشأ فيها. إذا كان هذا الكلام صحيحاً بالنسبة إلى العلوم التي تتعامل مع المادة الجامدة، فهو غير صحيح مع العلوم التي تتعامل مع الإنسان الديناميكي والمتغير

نهائية لا تذبذب فيها ولا تراجع. والسؤال الذي يطرح الآن: هل وصل علم النفس في الجزائر إلى مرحلة إعادة الإنتاج؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال، يكون من المفيد الإشارة إلى أن الطريقة التي تمكن من الوصول إلى مرحلة إعادة الإنتاج تمر من خلال ثلاث مراحل هي:

1. مرحلة إتقان علم النفس أو أي فرع من فروعها.
2. مرحلة معرفة خصائص المجتمع الجزائري.

ج-تكييف علم النفس لتلك الخصائص، وليس العكس كما هو حادث تقريبا الآن.

صحيح أن ثمة معاهد وأقسام لعلم النفس في الجامعات الجزائرية، وأن ثمة علماء نفس كثيرين، وأن خريجي معاهد علم النفس وأقسامها كثيرون أيضا، إلا أن ما ينشر من إنتاج نفسي قليل مقارنة بما كان يجب أن يكون. وإن معظم ما ينشر إنما ينشر خدمة لأهداف ضيقة لا تتجاوز في الكثير من الأحيان الحصول على الترقية. وبدلا من أن تكون الترقية بداية الإنتاج العلمي في الجامعات الجزائرية، فقد أصبحت للأسف نهاية الإنتاج العلمي. ولتوضيح الصورة أكثر، تتم الإشارة إلى أن الكتب النفسية التي تم نشرها من بداية عهد إصلاح التعليم العالي 1971م إلى غاية هذا اليوم، لم يتجاوز عشرات الكتب (ما كتب باللغة العربية أو بالفرنسية على حد سواء). نفس الكلام يمكن أن يقال عن النشر في المجالات النفسية المحكمة سواء المحلية أم الإقليمية أم الدولية. مع العلم أن المجالات النفسية المحكمة التي تصدر في الجزائر قليلة جدا، ولم تتمكن من أن

الجزائر ووهران وقسنطينة والحديثة كجامعة باتنة وورقلة وتلمسان. في هذه المرحلة شرع العائدون من الابتعاث وخاصة علماء النفس في هضم علم النفس لتحويله إلى المتعلمين أو طالبي العلاج. وقد لوحظ أن هؤلاء الأساتذة الجدد يميلون إلى تدريس ما تعلموه في الجامعة التي تكونوا فيها. لهذا، فلا غرو أن رأينا في الجامعة الواحدة أكثر من توجه واحد لعلم النفس (ثلاثة أنواع على الأقل: علم نفس ذو توجه عربي، علم نفس ذو توجه أوروبي، وعلم نفس ذو توجه أمريكي) يعود كل هذا إلى مصادر التكوين المختلفة. ومن المتوقع أن تأخذ هذه المرحلة فترة زمنية طويلة، لعدد من الأسباب، أهمها أوضاع الجزائر في حد ذاتها. منذ الاستقلال لم تتضح الأهداف البعيدة للبلد. وهناك الكثير من التذبذب والأخذ والرد. فعلى المستوى السياسي، تارة يكون التوجه اشتراكيا، وتارة أخرى يكون التوجه رأسماليا حرا. وعلى مستوى الانتماء، تارة يكون التوجه عربيا إسلاميا، وتارة أخرى تتم إضافة البعد الأمازيغي. وعلى مستوى التعليم الجامعي، تارة يتم تبني نظام الكليات، وتارة أخرى يتم تبني نظام المعاهد الجامعية. وعلى مستوى نظام التعليم الجامعي، تارة يتم تطبيق النظام التقليدي المتعارف عليه، وتارة أخرى (كما ذكر أعلاه) يتم تطبيق نظام الاتحاد الأوروبي الجديد المسمى نظام الليسانس- الماستر- الدكتوراه (مسار بولونيا). والحقيقة أن هذا التذبذب أو عدم الاستقرار لا يسمح للعلم ولا للتكنولوجيا بأن يتطورا. فالتطور العلمي والتكنولوجي في حاجة ماسة إلى الاستقرار.

3- مرحلة إعادة إنتاج علم النفس: وهي المرحلة المثلى التي ينتظر أن يصبح فيها علم النفس جزائريا بالمعنى الكامل للكلمة منسجما مع جميع المكونات الثقافية والدينية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، ومع ما يسعى البلد إلى تحقيقه من أهداف وغايات بصورة

والمؤسسات من علم النفس. لماذا يتم الاقتداء بالبلدان الغربية في قضايا، ولا يتم الاقتداء بها في قضايا أخرى؟ ألا يكون من المفيد الاقتداء بها في هذه المسألة بالذات. يعتقد (Heckman, 2007; Heckman and Dimitriy, 2007; and Heckman et al. 2006) أن وراء التقدم الذي شهدته البلدان المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا، عوامل متعددة منها الاستغلال الأمثل لعلم النفس. فمن جهة، لم يقم علماء النفس الجزائريون بدور من أدوارهم الذي صار في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين من أهم الأدوار التي يجب أن يقوم بها المتخصص في علم النفس، وهو القدرة على التعليل وإقناع الآخرين. (Accountability) (انظر Gysbers, 2004 : و American School Counselor Association. 2005). فبمجرد أن يحصل المتخصص في علم النفس على منصب عمل في الجامعة أو في غيرها يخلد إلى الراحة أو لا يجد الإطار الموضوعي الذي ينشط ضمنه، ولا يروج لعلم النفس. فلم نسمع في الجزائر عن باحثين حاولوا القيام بتعديل اتجاهات الأفراد والمؤسسات السالبة نحو علم النفس عموما أو نحو فرع من فروعها خصوصا، أو تدعيم الاتجاهات الموجبة للأفراد والمؤسسات نحوه. أما المؤسسات فقد لا تعرف أهمية علم النفس ودوره في تطويرها. وقد لا ترى له أهمية على الإطلاق. أو قد تعرف عنه الكثير، لكنها لا تثق في عالم النفس المحلي. ولا غرو أن تكون ثمة مؤسسات استعانت بالخبرات النفسية الأجنبية لحل قضية من قضاياها.

أما التحدي الثالث فهو انعدام التواصل بين علماء النفس الجزائريين سواء من هم داخل الوطن أم من هم خارجه. لو كنا نعيش في العقود الأولى للقرن العشرين، لما تمكنا من الحديث عن التواصل بين

تكون متخصصة في فرع أو فرعين من فروع علم النفس بسبب قلة المادة العلمية الجاهزة للنشر¹.

وفيما يخص ترجمة كتب علم النفس، فهي الأخرى ضعيفة جدا، وما يترجم من كتب نفسية في العام لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. بقي شيء واحد يجب القول إنه يتسم بشيء من النشاط في الجزائر، وهو إقامة المؤتمرات العلمية النفسية. لا تمر سنة من السنوات دون أن تقيم جامعة من الجامعات الجزائرية مؤتمرا علميا حول موضوع من مواضيع علم النفس، وغالبا ما يحضر تلك المؤتمرات أساتذة بارزون في علم النفس على مستوى الجزائر. غير أن المشاركة الدولية في تلك المؤتمرات عادة ما تكون ضعيفة لعدد من الأسباب. أهمها الهاجس الذي لا يزال يراود الأجانب من أن الأمن غير مستتب في الجزائر.

والتحدي الثاني الذي يواجه علم النفس في الجزائر هو عدم اهتمام المؤسسات الصناعية والتربوية والخدمية وغيرها بعلم النفس وبالعالم النفس كذلك. فهي إما تجهل أو تتجاهل الأدوار المختلفة التي يمكن لعلم النفس أن يقوم بها، وما يمكن أن يقدمه من خدمات تستفيد منها عاجلا أو آجلا. ومن النادر أن تتواصل مؤسسة من المؤسسات مع عالم نفس في جامعة من الجامعات الجزائرية. هنا نعتقد أن الطرفين مسؤولان عن تهميش علم النفس في الجزائر. ومن المؤسف جدا ألا يستفيد الأفراد

¹ يمكن إعطاء مثال للمجلات النفسية المحكمة التي تنشر في الجزائر حاليا:

أ/ مجلة الوقاية والأرغونوميا التي يصدرها مخبر الوقاية والأرغونوميا تحت إشراف الأستاذ الدكتور بوظريفه حمو أستاذ علم النفس الصناعي بجامعة الجزائر.

ب/ مجلة تنمية الموارد البشرية التي يصدرها مخبر تنمية الموارد البشرية تحت إشراف الأستاذ الدكتور لحسن بوعبد الله أستاذ علم النفس التنظيمي بجامعة سطيف الجزائر

- القياس النفسي.
- الإرشاد التربوي.
- أمراض النطق واللغة.
- علم النفس الاجتماعي.
- علم النفس المعرفي.

أما من حيث التوزيع العددي (الكمي) لهذه المناصب على مختلف الميادين، فنجد في الصدارة كلا من علم النفس العيادي والتربوي، يليهما علم نفس العمل والتنظيم متبوعا بباقي التخصصات.

نفس هذا التوزيع العددي يعكسه توزيع الطلبة على مستوى التدرج (البكالوريوس)، سواء من حيث فرص التكوين المتاحة بمختلف الجامعات الجزائرية، أم على مستوى توجيه وتوجه الطلبة إلى تخصصات علم النفس وعلوم التربية في الجامعات التي توفر كل المناهج، مثل جامعات وهران والجزائر وقسنطينة. وكمثال لتوزيع طلبة علم النفس وعلوم التربية خلال السنة الجامعية 2009/2010، على التخصصات المتاحة، يمكننا إعطاء مثال جامعة وهران، التي تمت فيها العملية كالتالي:

التخصص: علم النفس

المجموع	السنة الرابعة	السنة الثالثة	الشعبة
325	222	113	علم النفس العيادي
219	118	101	علم نفس العمل والتنظيم
554	340	214	المجموع

علماء النفس واعتباره تحديا. لكن ونحن نعيش في القرن الحادي والعشرين وهو قرن تكنولوجيا المعلومات، وتكنولوجيا الاتصال، والتكنولوجيا التي زاوجت بينهما وأنتجت الإنترنت، ونرى مثل هذه القطيعة، فهذا هو التحدي بعينه. في هذا الطرف بالذات، تكون الحاجة ماسة جدا إلى تنظيم يسعى إلى جمع علماء النفس الجزائريين وفتح قنوات الاتصال بينهم. وقد يكون التنظيم المؤهل للقيام بهذه الأدوار هو جمعية علم النفس الجزائرية. لن تكون هذه الجمعية الإطار الذي يجمع علماء النفس ويطور عمليات التواصل بينهم فقط، ولكن ستلعب دورا آخر في تطور المعرفة النفسية. لهذا، نعتقد أنه قد حان الأوان لإنشاء هذه الجمعية، وهي الحاجة التي نلمسها لدى العديد من النفسانيين الجزائريين.

رابعاً: آفاق تطور علم النفس في الجزائر مستقبلاً

يمكننا استشراف ملامح التوجه في علم النفس بالجزائر على مستوى التدريب أو مستوى البحث، من خلال المؤشرات التالية:

1. مناهج الدراسات العليا المعتمدة من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، خلال السنة الجامعية 2009-2010 : فقد تم تسجيل 281 طالب جديد (بعد المسابقة) في شهادة الماجستير في علم النفس وعلوم التربية، ينضم معظمهم إلى هيئات التدريس خلال السنوات القادمة، حيث يشكلون توجه هذا التخصص أو ذلك من حيث الكم والنوع. تغطي مناهج الدراسات العليا المعتمدة الميادين التالية لعلم النفس وعلوم التربية:

- علم النفس العيادي والصحة النفسية.
- علم النفس التربوي.
- علم نفس العمل والتنظيم.

التخصص: علوم التربية

الحال، لا نزال بعيدين عن شروط ضمان الجودة، التي بدأت تثير النقاش في السنوات الأخيرة، مع توجه " البوصلة " شمالا نحو مسار " بولونيا " Bologna Process (MESRS, 2007).

3.الأهداف والأولويات الكبرى للسياسة الوطنية للبحث والتنمية، التي تضمنها القانون التوجيهي والبرنامج الخماسي (2008-2012) ، حول البحث العلمي رقم 05-08 المؤرخ في 23 فبراير 2008 (الجريدة الرسمية، العدد 10، 2008) ، الذي حدد (34) برنامجا وطنيا للبحث العلمي.

يلاحظ وجود علم النفس وعلوم التربية بصفة رئيسية ضمن خمس (5) برامج أساسية هي (أ) التربية والتكوين (ب) العلوم الاجتماعية والإنسانية (ج) الصحة (د) السكان والمجتمع (هـ) الاتصال. إضافة إلى وجود محور أو أكثر من محاور علم النفس وعلوم التربية ضمن أكثر من برنامج آخر.

ومن خلال قراءتنا المتأنية للأولويات الكبرى للسياسة الوطنية للبحث العلمي، نلاحظ أن علم النفس، وضع في مرتبة متوسطة ضمن باقي أولويات البحث العلمي. لسبب بسيط، وهو أن متخذي القرار في شأن البحث العلمي، ينتمون - في الغالب- إلى تخصصات تقنية، ولم يستعينوا -فعليا- بأهل الاختصاص، سواء في علم النفس، أم في باقي العلوم التي صنفت في مراتب أدنى ضمن قائمة الأولويات. وهنا يكمن دور الجمعيات العلمية الوطنية التي تسهر على كل ما يتعلق بالاختصاص العلمي، كمجال أكاديمي متخصص، أو ميدان ممارسة متخصصة، لا يحق لغير أهل الاختصاص أن يتخذوا فيه قرارا.

المجموع	السنة الرابعة	السنة الثالثة	الشعبة
177	77	100	الإرشاد والتوجيه
63	33	30	التعليم المكيف والتربية العلاجية
12	12	تم تجميد الشعبة	المناهج الدراسية والتقييم التربوي
09		09	التكوين والتسيير في قطاع التربية (عوض: شعبة المناهج الدراسية والتقييم التربوي)
261	122	139	المجموع

2.توسع الخارطة التكوينية لعلم النفس على مستوى الجامعات الجزائرية، حيث كان خلال سنوات النشأة الأولى (سبعينيات القرن الماضي) ، يدرس على مستوى ثلاث جامعات هي: الجزائر وهران وقسنطينة. أما خلال سنة 2009 ، فإن مناهج علم النفس وعلوم التربية فتدرس في أكثر من ثلاثين (30)جامعة بمختلف أحجامها، البعض منها (كجامعات الجزائر وهران وقسنطينة وسطيف وعنابة وبلعباس) يدرس كل التخصصات، وبعضها الآخر (كجامعات مستغانم وتلمسان ومسيلة والوادي وأم البواقي) يدرس تخصصا أو أكثر، حسب طواقم التأطير (هيئات التدريس) المتوفرة. مما يشير إلى الانتشار الكمي لعلم النفس وعلوم التربية على المستوى الوطني، على حساب نوعية التكوين. وهذا بغض النظر عن ملاحظتنا، على الجانب النوعي للتكوين، ومحتويات المناهج المعتمدة، وأساليب الاعتماد الإداري (وليس الأكاديمي)، وبطبيعة

كالمؤسسات التربوية والصحية والصناعية والاقتصادية والاجتماعية.

2. شعور متخذي القرار بالحاجة إلى خدمات هذا العلم، في حل المشكلات والعقبات القائمة أمام التطور الشامل للمجتمع، كالأزمات الاجتماعية والفردية التي تمس الصحة الفردية والجماعية، وأزمات التربية والتعليم، وعقبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وغيرها. غير أن هذا الشعور لم يرق بعد إلى التفعيل، لأسباب موضوعية ترتبط بمشكلات التخلف الشامل.

3. كما ساهمت الأعداد المتزايدة لخريجي علم النفس وعلوم التربية خلال أربعة عقود الماضية (أي منذ إصلاح التعليم العالي سنة 1971) في التعريف بميادين هذا العلم، وبأدواره المختلفة في حياة الفرد والجماعة، إضافة إلى إسهامه (بحثاً وممارسة) في حل العديد من المشكلات التي عانى ويعانى منها الأفراد والجماعات. ورغم هذه الميزات للأعداد المتزايدة من الخريجين، إلا أنها كانت على حساب نوعية التكوين في الجامعة الجزائرية. كما أن التوسع الأفقي للعديد من التخصصات - ومنها علم النفس - وانتشارها في أغلب الجامعات وحتى المراكز الجامعية الصغيرة منها، وزع القدرات النوعية للمكونين من أساتذة التخصص. ما جعل المسيرين الإداريين يلجؤون إلى أقل الكفاءات، وفي العديد من الأحيان إلى غير المختصين من أجل تأطير الطلبة، ولو شكلياً. الشيء الذي أعطى خريجين - خاصة في الجامعات الصغيرة - ذوي تكوين ضعيف.

4. نتيجة هذا التطور الكمي لعلم النفس في الجزائر، الذي أثر سلباً على الجانب النوعي للتكوين، فإن الحاجة باتت ماسة إلى تنظيمه كتخصص (على غرار ما هو سار في البلاد التي سبقتنا في هذا المجال)، في إطار جمعية أو جمعيات أكاديمية (

كما يلاحظ التركيز على ميادين علم النفس وعلوم التربية المتعارف عليها تقليدياً في الساحة الجزائرية: علم النفس التربوي، وعلم النفس العيادي، وعلم نفس العمل والتنظيم... إلخ إضافة إلى بعض المحاور والميادين التي تم إلقاء الضوء عليها حديثاً، لمعالجة بعض الظواهر المستجدة على المجتمع الجزائري أو العالمي، كالعنف في الوسط المدرسي، وسيكولوجية الأزمات والصدمات، وسيكولوجية الهجرة السرية، علاوة على ميادين فرضها تطور علم النفس وعلوم التربية في الساحة الجزائرية كالأخلاقيات والآداب في علم النفس وعلوم التربية، أو سيكولوجية الآفات الاجتماعية، أو ازدواجية وتعدد اللغات، والأرغونوميا المدرسية (تكيف المحيط المدرسي مع مستعمليه)، أو تصميم وتكييف أدوات القياس والتشخيص، أو سيكولوجية المسنين، من خلال هذه المؤشرات الثلاثة:

- مناهج الدراسات العليا المعتمدة حديثاً، بصفتها المقررات الدراسية التي يتلقاها من يلتحق بطواقم التدريس في المدى المنظور (من 3 إلى 5 سنوات في المتوسط).
- وتوسع الخارطة التكوينية لعلم النفس على مستوى الجامعات الجزائرية، كونها تحدد كمية ونوعية مدخلات عملية التكوين.
- إضافة إلى محاور البحث في علم النفس وعلوم التربية التي سطرته السياسة الوطنية للبحث والتنمية، ووضعيتها (ترتيبها) ضمن أولويات السياسة الوطنية للبحث العلمي، على مدى السنوات الخمس القادمة، يمكننا الوقوف على الملاحظات التالية:

1. انتشار أوسع لعلم النفس كممارسة في ميادينه الطبيعية (أي أماكن وجود الأفراد والجماعات) ،

أهلهم للقيام بعملية التحويل المعرفي إلى اللغة العربية بطريقة فيها الكثير من أوجه الثراء، وهذا ما يلاحظه كل مطلع على رسائل الدكتوراه والماجستير التي تناقش في الجامعات الجزائرية، وكل مطلع على الإنتاج العلمي في الجزائر (من كتب ومؤتمرات وغيرها)

المراجع

1. عمر هارون خليفة. (2008) **توطين علم النفس في العالم العربي**. دار الفكر، عمان.
2. القانون رقم 05 - 99 مؤرخ في 18 ذي الحجة عام 1419 الموافق 4 أبريل سنة 1999 ، يتضمن القانون التوجيهي للتعليم العالي، المعدل والمتمم. الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية (1999) .
3. القانون رقم 05-08 مؤرخ في 16 صفر عام 1429 الموافق 23 فبراير سنة 2008 ، المتضمن القانون التوجيهي والبرنامج الخماسي حول البحث العلمي والتطوير التكنولوجي.
- الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية. (2008)
4. المرسوم التنفيذي رقم 209-08 مؤرخ في 17 شعبان عام 1429 الموافق 19 غشت سنة 2008، يتضمن نظام الدراسات للحصول على شهادة الليسانس وشهادة الماستر وشهادة دكتوراه) الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية سنة 2008، عدد4، صفحة (6-5).
5. المرسوم رقم 224-71 المؤرخ في 4 رجب عام 1391 هجري الموافق 25 غشت 1971 ، المتضمن "تنظيم شهادة الليسانس في علم النفس". الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية. (1971)

علمية)، للإشراف على عملية نموه وتطويره، ومنعه من الانحراف عن مساره العلمي إبعادا لكل متطفل، وتوجيهه الوجهة التي تخدمه كتخصص علمي وكمارسة متخصصة، وتخدم المجتمع الجزائري، كأى مجتمع آخر له خصوصياته النفسية والاجتماعية والثقافية.

خاتمة

يعتبر المسار التطوري لعلم النفس في الجزائر، ذا طابع خاص - في إيجابياته وسلبياته - كونه:

1. يحاكي المراحل التاريخية التي مر بها المجتمع الجزائري، من فترة الاستعمار (Fanon, 1959) ، ثم فترة الاستقلال بتوجهها الاشتراكي إلى غاية نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، إلى فترة الأزمة متعددة الأوجه مع بداية التسعينيات وما تلاها (يمكن مراجعة بعض ما نشر في مكتبة أي قسم من أقسام علم النفس عبر الجامعات الجزائرية).
2. أما من حيث التوجه الأكاديمي، فقد جمع علم النفس في الجزائر بين التوجه الفرنكوفوني والتوجه الأنجلوسكسوني) من خلال البعثات الطلابية (مع لمسة عربية من خلال الأساتذة العرب الذين أطروا ودرسوا الطلبة المعربين خلال السبعينيات من القرن الماضي، ومن خلال مراجع وكتب الأوائل من أساتذة علم النفس العرب، التي لا يزال يستعملها الطلبة في الجامعات الجزائرية، من أمثال: محمد عثمان نجاتي (الأب الروحي لعلم النفس في العالم العربي منتصف القرن الماضي). يوسف مراد، فاخر عاقل، وغيرهم ممن نهلنا من كتبهم.

3. هذا التنوع أضفى ثراء على نوعية خريجي علم النفس في الجزائر، كونهم يطلعون على أكثر من مصدر معرفي (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)، مما

système LMD entre implémentation et projection. Actes du colloque international. Alger: 30 et 31 mai 2007.

14. The official Bologna Process web site 2007-2010 Qualifications Frameworks / Three-Cycle System

http://www.ond.vlaanderen.be/hogeronderwijs/bologna/actionlines/QF_three_cycle_system.htm

15. Strategy for the EHEA in a global setting - adopted by Ministers in 2007

<http://www.ond.vlaanderen.be/hogeronderwijs/bologna/documents/>

16. Bologna Declaration (1999)

http://www.ond.vlaanderen.be/hogeronderwijs/bologna/documents/declarations_communique.htm

شكر وعرفان. يشكر الباحثان، الأستاذ الدكتور بشير معمرية، على كرم قراءته لهذه الورقة البحثية، وتقديم ملاحظات قيمة.

6. المرسوم رقم 71-230 المؤرخ في 4 رجب عام 1391 هجري الموافق 25 غشت 1971 ،

المتضمن " تنظيم شهادة الليسانس في علوم التربية ".
الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية. (1971)

7. American School Counselor

Association. (2005). The ASCA national model: A framework for school counseling programs. Alexandria, VA: Author.

8. FANON, Frantz (1959) L'an V de la Révolution Algérienne. 1^{re} édition, Maspéro, (Réédition) : Editions ANEP, 2006.

9. Gysbers, N.C. (2004). Comprehensive guidance and counseling programs: The evolution of accountability. Professional School Counseling, 8, 1-14.

10. Heckman, J. J. (2007). The Economics, Technology and Neuroscience of Human Capability Formation. Proceedings of the National Academy of Sciences, 104(3), 13250-13255.

11. Heckman, J., J. and Dimitriy, V., M. (2007). The Productivity Argument for Investing in Young Children. Review of Agricultural Economics, 29(3), 446-493.

12. Heckman, J. J., Stixrud, J. and Urzua, S. (2006). The Effects of Cognitive and Non-cognitive Abilities on Labor Market. Journal of Labor Economics, 24(3), 411-482.

13. Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique (MESRS) (2007). Le